تمهيد
المقاومة الحضارية.. تأملات في المفهوم

أولًا- معنى "المقاومة" في المعجم العربي:

المقاومة مصدر من الفعل: (قاوَمَ)، تقول العرب: قاوم يقاوم مقاومةً وقِوامًا، فهو مقاوِم.

وبالنظر في المعجم -لاستطلاع دلالة المقاومة- نجد أنها تدل على القيام للأمر..

جاء في مختار الصحاح: "(الْمُقَاوَمَةُ) بِالضَّمِّ: الْإِقَامَةُ، وَبِالْفَتْحِ: الْمَجْلِسُ وَالْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ[1]".

وتستعمل المقاومة عند علماء التصوف في التعبير عن معنى: مجاهدة النفس، ومخالفة الهوى[2].

ومن دلالات المفهوم: أن المقاوَمة قرينة للعزة والقوة، وعدمها - أو الضعف عنها- مقارن للذل والاستكانة؛ يقول الإمام العسكري: «الْفرق بَين التَّوَاضُع والتذلل: أَن التذلل: إِظْهَار الْعَجز عَن مقاومة من يتذلل لَهُ، والتواضع: إِظْهَار قدرَة من يتواضع لَهُ...[3]».

---

(1) مختار الصحاح (ص: 263).

(2) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (2/ 1484).

(3) الفروق اللغوية للعسكري (ص: 249).

Obeikandl.com

وقال في موضع آخر: «وَقد قيل: الذلة: الضعْف عَن المقاومة، ونقيضها الْعِزَّة، وَهِي: الْقُوَّة على الْغَلَبَة، وَمِنْه الذلول وَهُوَ المقُودُ من غير صعوبة؛ لِأَنَّهُ ينقاد انقياد الضَّعِيف عَن المقاومة... [1]».

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا**﴾ [آل عمران: 146]: «أي: لم يضعفوا بنقصان القوة، ولا استكانوا بإظهار الضعف عند المقاومة[2]».

فالمقاومة إذن فعل إيجابي يدل على النهوض والحيوية والعزة والمنعة والقوة، والشجاعة والثبات في ميدان النضال، والسعي في توقي الأخطار، أو دفعها بعد ورودها بالفعل.

ثانيًا- دلالات «المقاومة» في الاصطلاح المعاصر:

لا يخفى على فطنة القارئ أنه من الأهمية بمكان التأمل في المعنى المتبادر إلى الذهن عند إطلاق اللفظ، وسببِ تعين هذا المعنى دون غيره عند سماع اللفظ في الاصطلاح المعاصر.

جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة:

- قاومَ العدُوَّ: واجَهَهُ، وضادَّه «قاوم الإغراءَ/ الظُّلمَ/ البردَ/ مُيُولَه/ الحاكمَ المستبدّ/ الطغيانَ/ العدوانَ/ الهجومَ/ الضّربةَ- قاوم الرجالُ الحريقَ- يقاوم بشراسة».

(1) الفروق اللغوية للعسكري (ص: 251).

(2) الفروق اللغوية للعسكري (ص: 116).

• قاومَتِ الرِّياحُ سيرَ السَّفينة: منعتها السّيرَ أو التقدُّمَ.

• قاوم الجسمُ المرضَ: قام بردّ فعل؛ ليزيل تأثيرَ المرض، أو يخفّف من ضرره[1].

وجاء في موضع آخر منه:

مُقاومة [مفرد]:

1 – مصدر قاومَ.

2 – صُعوبة تواجهُها قوَّة معيَّنة «مُقاومة الرِّياح– مقاومة التجربة: المعارضة ورفض الخضوع لإرادة الغير».

3 – قدرة الكائن الحيّ على أن يدرأ عن نفسه الأمراض والسّموم.

4 – منظمة عسكريّة –أو شِبْهُ عسكريَّة– تشنّ على العدُوّ المحتلّ حَرْبَ عِصابات في المدن وخارجها: «مقاومة شعبيّة–جيوب المقاومة– المقاومة السلبيّة/ السِّرِّيّة/ الفلسطينيَّة– قام المتمرِّدون أخيرًا بمقاومة عنيفة لقوات الحكومة– مقاومة تدابير حكوميَّة تعسُّفيَّة».

5 – معارضة غريزيّة لأيَّة محاولة لنقل موضوع من اللاّشعور إلى الشُّعور.

6 – مواجهة الخطر أو العدوّ والثبات وعدم الاستسلام له، رغم قوّته وسيطرته الجزئيّة أو الكلِّيَّة على ميدان القتال.

(1) معجم اللغة العربية المعاصرة (3/ 1875)

obeikandl.com

• جيوب المقاومة: بقايا القوّات المدافعة عن بلادها بعد احتلال الجيش الغازي لهذه البلاد[1].

نستخلص مما سبق أن مدلول المقاومة في الاستعمال اللغوي المعاصر يلتصق في الأذهان بمقاومة الأخطار والآفات والأمراض، ومقاومة أصناف المظالم التي يتعرض لها البشر.

ولاحظت أن مفهوم «المقاومة» في الاستعمال اللغوي المعاصر يعكس تفوقًا ما للعدو المقاوَم (بفتح الواو)، ولعل هذا هو السبب في أن مفهوم المقاومة يستعمل غالبًا لوصف أعمالٍ نضالية تقوم بها أطراف إسلامية، باعتبار أن الأمة الإسلامية باتت الأمةَ الوحيدة التي تعيش في حالة معاناة من التفوق (الدنيوي) [2] لعدوها الذي يذيقها ألوانًا من الأذى والنكال: إما بنفسه وإما بوكلائه.

(1) معجم اللغة العربية المعاصرة (3/ 1889)

(2) لعل هذا التعبير (التفوق الدنيوي) أفضل وأدق من تعبير: (التفوق الحضاري)، فآثرت إطلاقه تحاشيًا عن تعبير (التفوق الحضاري)؛ لأن الحضارة الإسلامية هي أرقى وأقوى الحضارات التي عرفتها البشرية؛ لأنها الحضارة العبقرية الفريدة التي تشكلت من الامتزاج المبارك بين المنهج الرباني المطهر وبين حركة العقل المسلم المستنير عبر قرون العزة التي سادت فيها أمة الإسلام وكانت لها الريادة بين الأمم. ولا يضير الحضارةَ الإسلامية حالةُ (التراجع الدنيوي) للمسلمين والعرب؛ لأن هذا التراجع ناشئ عن تخلي أمتنا -على حين غفلة من أهلها- عن جوهر الحضارة الإسلامية، تلك الحضارة التي مزجت مزجًا فريدًا بين النزعة الربانية التي تسمو بها الروح، والنزعة العلمية المعرفية التي يسمو بها العقل، ويتألف من سمو الروح والعقل سموُّ الكيان المادي للفرد والأمة.

كما صارت المقاومة في الاصطلاح المعاصر عَلَمًا على أشكال معينة من المدافعة للأخطار، ولعل أول ما يتبادر إلى الذهن عند إطلاق لفظ «المقاومة»: الحركات التي اتخذت من المسلك النضالي والجهادي سبيلًا للاحتجاج على الظلم، لا سيما في حالة تعرض أوطانها للاحتلال.

وتعد المقاومةُ الفلسطينيةُ هي المعنيَّ الأولَ من إطلاق «المقاومة» في لغة الإعلام العربي على الأقل.

ولعل السبب في هذا حرص الداعين للقضية الفلسطينية على تمييز المسلك النضالي بمصطلح يطبع في نفس السامع دلالة إيجابية، وهذا الغرض يلبيه مصطلح «المقاومة»؛ لأنه يعكس استبسال أنصار القضية في نصرتها دون أن يثير الهواجس التي يثيرها مصطلح «الجهاد» بعد أن نجحت آلة الإعلام العالمي في تفخيخه وتحميله بدلالات سلبية تقترن بـ(فعل القتل) أكثر مما تقترن بمدافعة العدو، فضلًا عن ربطه بمفاهيم أخرى مثل الإرهاب والتطرف.

ثالثًا- حضارية المقاومة:

الحضارية نسبة إلى الحضارة، و(الحضارة) في اللغة: الْإِقَامَة فِي الْحَضَر[1]، وهي ضد البداوة، وسميت بذلك لَأِن أَهلهَا حَضَروا الْأَمْصَار ومساكن الديار الَّتِي يكون لَهُم بهَا قَرَار[2].

---

(1) يطلق (الْحَضَر) على المدن والقرى والريف.

(2) المحكم والمحيط الأعظم (3/ 122).

هذا أصل معنى «الحضارة» في اللغة، ثم شاع استخدامها في العصر الحديث للدلالة على مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني وَمظَاهر الرقي: العلمي والفني والأدبي والاجتماعي فِي الْحَضَر، كما جاء في المعجم الوسيط، وذكر أنها مَجمعية[1].

وجاء في معجم اللغة العربية المعاصرة:

حَضارة [مفرد]: ج حضارات (لغير المصدر):

1 – مصدر حضَرَ.

2 – تمدُّن، عكس البداوة، وهي مرحلة سابقة من مراحل التَّطوُّر الإنسانيّ «بلغت الحضارة الإسلاميّة أَوْجَهَا في القرن الرابع الهجريّ».

3 – مظاهر الرُقيّ العلميّ والفنيّ والأدبيّ والاجتماعيّ في الحَضَر «الحضارة الإسلاميّة– مهد الحضارة».

حَضارِيّ [مفرد]: اسم منسوب إلى حَضارة: «كانت بغداد مركزًا حضاريًّا مشهورًا في القرون الوسطى» ° حَضاريًّا: من الوجهة أو المرحلة الحضاريّة[2].

وبِناءً عليه؛ فوصف المقاومة بـ(الحضارية) وعدمها يرجع إلى مدى التزام حركة المقاومة بأخلاقيات الحضارة، وهي في الحالة الإسلامية:

---

(1) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (2/ 633)؛ المعجم الوسيط (1/ 181)؛ معجم الصواب اللغوي (1/ 323).

(2) معجم اللغة العربية المعاصرة (1/ 513).

obeikandl.com

جملةٌ من القواعد والأحكام الشرعية الضابطة للعمل المقاوِم، وتستمد هذه القواعد والأحكام غالبًا من الأبواب الفقهية التي تُعنى ببيان الأحكام التي تدخل في نطاق المقاومة في الاصطلاح المعاصر المتقدم بيانه؛ كأحكام الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحسبة، ونحو ذلك من الأحكام المتصلة بقضايا الإصلاح والتغيير.

وعليه فوصف المقاومة بـ(الحضارية) وعدمها يحصل باعتبار: الشكل الذي تكون عليه المقاومة، والوسيلة التي يتخذها المقاوِم.

فإن وضعت الحركة المقاوِمة لنفسها حدودًا وضوابط أخلاقية تلتزم بها وتعد الإخلال بها انحرافًا عن المسار الصحيح للمقاومة؛ فإنها تكون حينئذ مقاومة حضارية؛ لأنها (مقاومة منتمية للحضارة)؛ إذ التزمت بمرجعيتها الأخلاقية والتشريعية.

وإن لم تهتم الحركة المقاوِمة بمسألة الضوابط سالفة الذكر، وأطلقت لنفسها العنان في تجاوز كل الضوابط الأخلاقية والأعراف الإنسانية؛ فإنها حينئذ لا تكون حضارية، وتكون جديرة باسم آخر غير اسم «المقاومة».

رابعًا - المقاومة الحضارية حقيقة متأصلة في الأمة:

يرتبط مفهوم المقاومة في الأذهان بالهجمات التي ترد على الأمة فتشعرها بالخطر الذي يهدد كيانها، وهذا الشعور يستنفر قواها فتتجه إلى الفعل المقاوم.

لكن الحقيقة أن معنى المقاومة لا ينحصر في كونه رد فعل للهجمات المدبرة التي تهدد كيان الأمة في أوقات الضعف، وإنما هو – في نظري – عنصر ذاتي مستمر الحضور في كيان الأمة على اختلاف العصور[1]، ويمثل جزءًا مهمًّا من فاعلية الأمة المستمرة على اختلاف الأطوار التي تمر بها..

ففي عصور القوة والمنعة لا يغيب معنى المقاومة بغياب خطر الهجمات الكاسحة من أعداء أقوياء، بل يكون معنى المقاومة حاضرًا بشكلٍ ما – يمكن تسميته: المانعية الكامنة[2]– بحيث يتلاءم مع الحالة الراهنة في هذه الأطوار، ففي عصور المنعة تتخذ المقاومة شكل الوقاية التي تحمي هذا الجسد القوي من تسرب الآفات الفتاكة التي تعصف بمقدرات الأمم القوية وتحيلها من طور المنعة إلى طور التراجع والانحدار.

وفي عصور الانحطاط تتآكل منظومة الوقاية الذاتية؛ لأن الأمراض تكون قد نجحت بالفعل في التسلل إلى الجسد القوي، وحينئذ تحيل هذا الجسد من طور القوة إلى طور الاختلال، فتبرز حركة المقاومة في شكلها الصريح هادفة إلى الحفاظ على الجسد المختل من الموت والانهيار حتى يبقى الأمل في العلاج والتعافي قائمًا.

(1) حتى في أوقات عزة الأمة وسيادتها.

(2) التي تتحول في أوقات تراجع الأمة من طور المانعية الكامنة –ذات الآثار الظاهرة– إلى طور المقاومة الصريحة التي تتخذ شكل رد الفعل إزاء الهجمات التي تهدد كيان الأمة في أوقات التراجع والانحدار.

ولعلنا نكون في هذا التمهيد الموجز قد نجحنا في تحرير مفهوم الحضارية على نحو ملائم، وفيما يأتي نعرض فصول البحث على الترتيب السابق بيانه في المقدمة..

***

obeikandl.com